الثقافة

الجزء الثاني من المجلد الخامس عشر بعد المئة

١ يوليو سنة ١٩٤٦ — ٥ رمضان سنة ١٣٦٥

[illegible]

والامبراطورية البيزنطية

أ — تمهيد

في سنة ٥٣٤ ثم في سنة ٥٥٥ من الميلاد ، استطاع قوّاد الامبراطور البيزنطي وجيوشه ، أن تقضي على مملكتي « الوندال » [1] والقوط الشرقيين [2] كما اغتصبت جزءاً من شاطئ إسبانيا من القوط الغربيين [3] . لهذا كان درس الأحوال التي قامت في القسطنطينية في ذلك العهد ، وبخاصّة في عصر « يوستنيانوس » ، أعظم أباطرتها ، من أخص ما يعنى به دارس التاريخ ، ومن أوليات ما ينبغي أن يكون موضع عناية أولئك الذين يدرسون أوربّا في القرون الوسطى .

في سنة ٥١٨ ميلادية انتهى حكم « أناستاسيوس » [4] ، وكان حكماً مضطرباً غير مستقر ، مملوءاً بالقلق ، ساورته الانتفاضات في مقرّ الملك وفي خارجه ، وشهدت فيه القسطنطينية كثيراً من الشغب ، وثار فيه « الأزرقيون » [5] ووقعت حرب مع الفرس في الشرق ، وانشعب على الدولة وحدة دينية أثار غبارها رؤساء الامبراطور لاخذه بمذهب الوَحْدِيطَبَعِيَّة [6] .

والوَحْدِيطَبَعِيُّون هم القائلون بأن للمسيح طبيعة واحدة هي الطبيعة الإلهية وكانت هذه النظرية ذائعة في الشرق ، فسببت كثيراً من الاضطراب ، لأن الشرقيين ،

---

(1) Vandals (2) Ostrogoths (3) Visigoths (4) Anastasius (5) Blue Circus (6) Monophysitism

حتى الطبقات الدنيا من مجتمعهم ، كانوا يأخذون بضلع في المناقشات اللاهوتية . وعلى الجملة فإن « أناستاسيوس » قد خلف تركة مثقلة بالهموم .

عند موت « أناستاسيوس » ارتقى عرش الأباطرة الشرقيين جندي هرم من المتمسكين بالنصرانية على صورتها السُّنِّيَّة[1] (الأورثودكسية) ، هو الامبراطور « يوستين »[2] فرحبت به البابوية ووثقت بنواياه . وكان أميًّا ، وقلما يعرف من القراءة شيء ؛ حتى لقد كان يتخذ نموذجاً يرسم اسمه على غراره ، إذا أراد التوقيع ؛ ونذر أن يعرف شيئاً من شئون السياسة . أما الحاكم الحقيقي في خلال تسع السنوات التي ملك فيها ، ثم في خلال ثمانية وثلاثين سنة من بعد ذلك ، فكان الإمبراطور « يوستنيانوس »[3] وهو من ذوي رحمه ، تلقى من العلم أوسع ما يدرك من العلم في عصره ، وتدرَّب في السياسة منذ سنة ٥١٨ ميلادية ، كان قد بلغ السادسة بعد الثلاثين من عمره . ولقد قال فيه المؤرخ الإنجليزي النابه « إدورد جبُّون » قولة حق ، إذ أقر بأن « يوستنيانوس » لم يكن من رجال الحداثة قط » . وعاش حتى بلغ الثالثة بعد الثمانين . وكان فاتر المزاج عصيَّ الفؤاد على الوجد عن أنس ، بسيط العادات ، زاهداً عفيفاً .

قال فيه أحد معاصريه : « لم يكن ممن يجهل ولا ضئيله ، متناسب الأعضاء ، أقرب إلى الرزانة منه إلى النَّزق . أما وجهه فمستدير جذاب . وكان صافي اللون ، أكثر ما يكون أدمة صفاء ، عند ما يجلس بين كاملين عن الطَّعام .

كان محبًّا للنظام والتدبير في الأمور على قواعد مرسومة ، ذا قدرة فائقة في التعرف على دقائق الأشياء وتفاصيلها ، شأن كل النابهين من رجال الإدارة . وهو أشبه الرجال بالإداريين من حيث الإكباب على العمل مع قليل من النوم ، والبغض الشديد للكسل والاسترخاء . وجُبِل بطبعه الذاتي على كل إدارة من إدارات الحكومة ، وأكبَّ على درس مشاكل الإدارات .

كان قادراً على ضبط نفسه ، وتدبير مشاعره وأغراضه . أما مظهره فكان يعبِّر تعبيراً تاماً عما عليه نفسه من القوة الهادئة والثبات على غاياته . ولقد خُبِّر أن قدرته التحليلية كانت ترجح بعض المواقف الحرجة . وأنه في قرارة طبعه كان من ذوي المواهب العقلية أكثر منه رجلاً من ذوي المواهب العملية . ومع هذا فإن تاريخه يتضح عن أن أعماله كانت ميسَّرة في الأكثر بسياسات مرسومة الحدود مضبوطة القواعد ، وبمبادىء ثابتة لا يتحوَّل عنها ولا يخرج عليها . ولم يكن هنالك من شيء يضطره إلى التردد ، والتنوح بين الإقدام والإحجام إلا ضغط ظروف خارجة عن إرادته .

(١) Orthodox (٢) Justin (٣) Justinian

منذ بداية الحكم في الأعمال التي قام بها، التي تشير إلى أن يكون من عظماء الأباطرة فنجح وبلغ غايته. ولقد اغتصب من المتنازع من مارك انطوني الشرقيين مدينة «رافنا» (١) حيث مرقد «غلا بلاسيديا» (٢) و«ثيودوريك» (٣)، فترى هناك حتى اليوم صوراً رسمية للسيد الأكبر «يوستنيانوس» مع الإمبراطورة «ثيودورا» (٤)، صُوِّرت على القاشاني الفخم في أثناء ملكه.

إن الأعمال التي رسم «يوستنيانوس» معالمها، قد اضطرته إلى الاستعانة بعدد من الوكلاء ذوي الكفايات. ولقد كان سر الحظ في العثور عليهم، أو بالأحرى كان حكيماً في انتقائهم، كان أحد من «بليزاريوس» و«الخصي نارسس» (٦) قائدين عظيمين. وكان أحد من «تريبونيانوس» (٧) مهندساً فارهاً أشرف على إقامة المنشآت والمباني العامة. أما «يوحنا الكبادوكي» (٨) المشترع الفقيه الذي يرجع إليه الفضل في كل أعمال التشريع التي تمت في عصره، وهو «يوحنا الكبادوكي» (٩) وهو من رجال الإدارة الأكفاء والمشرعين في المسائل المالية.

أما «يوحنا» وزير المالية في عهد «يوستنيانوس» فالمال الذي تحتاج إليه مشروعاته العظيمة. وأما «تريبونيانوس» فبالرشوة والاتجار بالعدل، غير أن «يوستنيانوس» كان يتغاضى عن كل ذلك، إن لم يكن شاكراً، تأكل قلبه الغيرة، حتى من أخص أتباعه، والمتميزين من رجاله. أما «ثيودورا» زوجه القادرة المفيد، فكانت من أعظم من استعان بهم من عقدي ذوي الرأي، ومن أمجاد عصره ظهور المؤرخ الكبير «بروكوبيوس» الناموس الملازم للقائد «بليزاريوس» فقد وضع كتباً في حروب «يوستنيانوس» وفي منشآته المدنية، مما زاد في قدره وأعلى من مكانته.

غير أن «بروكوبيوس» إلى جانب هذا، كتب تاريخاً سرياً لذلك العصر، وصف فيه «يوستنيانوس» بأنه الشيطان مجسماً، وإن حكمه كان سلسلة متصلة الحلقات من الجرائم والآثام والاضطهاد. على أن في هذا الكتاب غلواً وتطرفاً، وتحاملاً يظهر بيناً في مثل قوله: «إن ما أصدر «يوستنيانوس» من أوامر انتهى أمر الكثير بالقتل، قد فاق من حيث العدد، كل ما صدر من أمثاله في جميع العصور». وأنه «كان لغير مال، فلم يكن يسمح لغيره أن يكون ذا مال». وأن «ثيودورا» زوجة «يوستنيانوس»، كما وصف زوجة «بليزاريوس» فقال إنها «أحط النماذج النسوية». ولكن من خلال هذه الافتراءات، يمكن أن نستشف بعض الحقائق المؤيدة بقرائن المنطق.

(١) Ravenna (٢) Galla Placidia (٣) Theodoric (٤) Theodora (٥) Belisarius
(٦) Narses (٧) Tribonian (٨) John of Cappadocia (٩) Johannes Teutonius

٢ — الامبراطورة ثيودورا

قيل إن « ثيودورا » كانت ابنة حارس الوحوش في « الهيبدروم »[1] وأنها كانت وقتاً ما من شبابها ممثلة لعوباً عملت في مسارح القسطنطينية . وبعد أن ارتادت الشرق ، عادت الى العاصمة الكبرى شخصية مهذبة أصلحتها المخاطرات وشذبت قتادتها المجاورات . على أن هذا القول مشكوك فيه بعض الشيء .

وقع « يوستنيانوس » في حبائل غرامها ، فتزوج منها في سنة ٥٢٣ ، وشاطرته مسئوليات الحرش من سنة ٥٢٧ الى سنة ٥٤٨ ؛ ويقال ان سلطانها عليه في الشئون السياسية والدينية كان قويًّا بالغ الأثر .

يقول « فروقوفيوس : كان لها « وجه مفرط الحسن . وبالرغم من أن جمالها كان صغيراً فإنه كان في أقوم صورة وأسوى تركيب . أما بشرتها فلم تكن الى البياض الصرف بل الى التورد الخالص . كانت عيناها مفرطتا اللمعان في الحركة ، بحيث تستطيع أن تحولها في ألف اتجاه في لحظة واحدة » .

ثم يقول إن يوستنيانوس وثيودورا كانا يتبعان سياسة التظاهر بالاختلاف في شئون الدولة فيظاهر كلٌّ منهما حزباً في حين أنهما كانا يعملان ويدبران في وفاق واحد ، ويشجعان بعضهما لبعض بواطن نصرائهما بكل صراحة ، فاستطاعا بذلك أن يقفا على أسرار خصومهما

والظاهر أنهما قد حلقا متسبين أحدهما لصاحبه ، مهيَّأين ليكونا نفساً واحدة في جسمين . وفي حين كان « يوستنيانوس » اليقظ يمضي الليل بطوله مُستَسْلِماً في جوانب القصر ، كانت « ثيودورا » تمضي الغط في نومها حتى ينتصف النهار . كان من الهين أن ترى الامبراطور ، أما هي فكان من أشق الأمور أن تمثل في حضرتها . لا يكاد « يوستنيانوس » يمد يده إلى طعام أو كأس شراب حتى ينشغل عنهما بمهام الدولة . أما ثيودورا النؤوم فلا تكاد تغادر فراشها إلا لتستحم . ثم ترتد إلى سناها الهادئة ، حتى إذا كان وقت الغداء أو العشاء عُكِفَ على شهوانها كل أنواع اللحوم خاصَّة ، وبوفرة غير مألوفة .

٣ — سياسة يوستنيانوس

إن الأشياء الرئيسة التي رمى « يوستنيانوس » الى تحقيقها ، تنحصر في الآتي :

(١) إن يجعل سلطة الامبراطور مطلقة .

(٢) ان ينحي الانشقاق مع البابوية وان يحتفظ بالوحدة الكنسية وبالأرثوذكسية .

---

(1) Hippodrome

(٣) ان يعيد للامبراطورية ممتلكاتها في الغرب ، وان يحمي الامبراطورية الرومانية

(٤) ان يؤمّن الامبراطورية القائمة (البيزنطية) من أن تهاجم باتباع سياسة كيسة مرنة تتفاد الهجوم ، فيعيد بناء الحصون القديمة ويقيم غيرها في شبه جزيرة البلقان وفي جميع أنحاء الشرق ، ويتجنب الحرب مع الفرس ومع الهجوم أطول زمن ممكن .

(٥) ان يصلح الادارة الامبراطورية ، وان يؤسس حكومة قوية حازمة .

(٦) ان يتم العمل الذي بدأه الامبراطور « ثيودوسيوس » الثاني [1] في سنة ٤٣٨ في القانون ، وان يصب القانون الروماني في قالب كامل دائم .

(٧) ان يكون من عظماء البناة ، كما كان كبار الأباطرة من قبله .

استطاع « يوستنيانوس » أن يرفع من مركز الامبراطور ، فجعله أسمى مما كان في جميع العصور . فقد فاق « ديوقلطيانوس » [2] في فخامة بلاطه وتنظيم رسمياته ، وفي استخدام الألقاب ذات الرنين والطنين . أما مراسيم الدولة فكانت تصاغ في لغة بالغة منتهى الطرح والغطرسة . فاذا مثل أمامه أحد سجد وقبل قدمي السيد « يوستنيانوس » . ومع هذا فان « فروتوفيوس » يقول في تاريخه السري ، بأنه كان قريباً من الناس والوصول اليه سهل هين ، وانه لم ينكر على أحد أراد الاتصال به حق التحدث اليه والمثول في حضرته ، وانه كان حسن الالقاء جم الأدب . وفي الواقع أن أموراً كثيرة من أمور الدولة حصرها « يوستنيانوس » في يد الحكومة المركزية ، فزادت الشاغل والمهام التي تقع عليه أكثر مما كانت في أيام غيره من الأباطرة السابقين .

كان من أول مهمات « يوستنيانوس » أن يسوس جماهير القسطنطينية الشاغبة الجامحة الى الانتقاض والثورة ، وهي مهمة من أشق المهمات التي شغلت الأباطرة من قبله . ومن أجل أن يتقرب من الغوغاء أنفق في سنة ٥٢١ ما يقرب من ثلاثة أرباع مليون من الجنيهات على الاستعراضات والملاعب العامة . وكان « أناستاسيوس » قد حظر مجالدة الوحوش ولكن « يوستنيانوس » أجازها . وبالإضافة الى أجازته مجالدة الناس للوحوش والترخيص للناس بشهود مسارح التمثيل التي وسم أحدها بصبغة إذ سمي « الموسات » ، فإن أهلية أهل القسطنطينية المحبوبة كان سباق العربات وكانت تقام كل يوم أحد في حلبة السباق (الهيبودروم) الكبرى حيث كان يشهدها ثلاثون ألف رجل ، لأن شهودها كان محظوراً على النساء . وكان المشاهدون ينتسبون أحزاباً بحسب ألوان الثياب التي يلبسها المتسابقون ، ويحتل أهل كل حزب أمكنة خصصت لمختلف الألوان . ومن هنا نشأ الحزبان العظيمان حزب الخضر وحزب الزرق اللذين اقتسما المدينة ، وتطرفا في

(١) Theodosius II (٢) Diocletian

منافساتها حتى النداء ثم الاعتداء . على أن الحزبين قد استطاعا ، في بعض المناسبات ، أن يسطبغا بصبغة سياسية . وكان « أناستاسيوس » يناصر الخضر ، في حين أن « يوستنيانوس » و « ثيودورا » كانا يناصران الزرق . فإذا انتصر أحد الحزبين في سباق أقيم في الحلبة احتفال عظيم تحية للمنتصرين . كذلك كان الامبراطور ممن يشهدون السباق في أكثر الأحيان ، فينتهز الشعب هذه الفرصة السانحة ويتقدم إلى الامبراطور معبّراً عن مشاعره . وكان الامبراطور يقابل في العادة بالهتاف ، ولكن كان يقابل بعض الأحيان بالصفير ، أو تتخذ مقصورته هدفاً لقذائف السلاطة والسُّفَه أو عرائض الشكوى من سلوك الحكومة ، قد يحدث شغب بالغ ، ان لم يكن في داخل الحلبة ، ففي شوارع المدينة .

وفي سنة ٥٣٢ شب الخضر والزرق على حاكم المدينة وطلبوا عزل « إيريبونيان » و « يوحنا الكبدوكي » بل ان ذلك لم يكف لارضائهم . فلما جردت عليهم الجنود ، ردوهم الى القصر الملكي عَشْرَةً ، وأشعلوا النار في المدينة . واضطر « يوستنيانوس » أن يناشدهم التعقل والاخلاد للسكينة في الهبرذروم ، ولكن الجمهور الهائج رفض أن يثق بوعوده وأعلن تنصيب امبراطور آخر . ولقد أخذ « يوستنيانوس » الفزع والخوف حتى لقد فكر في مغادرة المدينة . ولكن « ثيودورا » خطبت مجلسه الخاص خطبة عبرت عن منتهى الاقدام والشجاعة ورفضت أن تفر ، وأهابت بزوجها قائلة : اذا أردت أن تنجو أيها الامبراطور فان لدينا المال والسفن ، وهذا البحر الذي أمامك ولكن تأمل قليلاً لعلك اذا فررت وتخون بنفسك لا تعود فتفضل الموت على النجاة . أما أنا فأظن أن الامبراطورية ثوب جميل يدفن المرء فيه »

ولقد فعلت هذه الكلمات في الرجال فعل السحر فصمموا على القتال والصمود للثورة .

خرج القائد « نرسس » محاولاً أن يستميل بعض الزرق بالمال ، كما خرج القائدان « بليزاريوس » و « موندوس » [1] بفرق الهمج المسترزقة ، وأخذا يذبحان بقسوة جمهوراً احتمى بالهبرذروم . وتعالت الصيحة من جانب الجمهور « استظهروا عليهم » فسميت هذه الثورة التي ظلت تضطرم ستة أيام بثورة « نيكا » [2] أي النصر . ولقد سمح « يوستنيانوس » بإقامة الألعاب في الحلبة سنين من بعد ذلك ، وأصدر لوائح عدة تضمنت أنواعاً ادارية من شأنها أن تحفظ النظام في المدينة ، وتجعل الحياة فيها أكثر رتابة . غير أن سلطان الزرق والخضر ، قد عاد قبيل موته الى ما كان عليه قوة وعنفواناً .

[يتبع] اسماعيل مظهر

(1) Mundus (٢) The Nika Riot : the personification of Victory, called Victoria, by the Romans, the goddess of Victory. Class : Dict. 60